فلسفة الهزيمة .. أو مشكلة اللغة العربية

بقلم روكس بن زائد العزيزي

في امثال العامة : « اذا افتقرت العيلة الى المـــال كثر هذيانها ، واظلم فكرها ! »

وقول العامة هذا ينطبق على واقع الأمـة العربية الهزيل اشد الانطباق ، فالهزيمة او الهزائم المتوالية التي منيت بها الأمة العربية في ميدان الحرب ، وفي ميدان السياسة طبعت تفكيرها — وهي لا تشعر — بطابع الشك والحـــيرة في كل شأن من شؤونها ، ولولا خوف العرب من الناس وخجلهم من التاريخ لنسبوا إخفاقهم في ميـدان السياسة والحرب الى صعوبة اللغـة العربية ، وتعقيد صرفها ونحوها ، وعروضها وبيانها ! . .

يذكرني ما نحن في سبيله بقصة وقعت ايام الترك العثمانيين في إحدى مدن الديار الأردنية ، فقد تألم القوم من عنف قائم المقام التركي ، فأجمعوا امرهم ان يشكوه الى المتصرف فالوالي ، واخذ القائمون بهذه الحركة يولم بعضهم لبعض للحصول عـــلى التواقيع اللازمة لعريضة الشكوى ؛ وبعد اخذ ورد نحو ثلاثة اسابيع أكلوا فيها نحو واحد وعشرين خروفاً وواحد وعشرين طبقاً من الكنافة قرروا ان ما هم فيه من الظلم سببه هذا الآذن المشؤوم ، فعدلوا عن الشكوى من قائم المقام وشكوا الآذن طالبين فصله عن العمل او نقله وتم لهم مـا ارادوا ، وظل قائم المقام في امن وطمأنينة !

والذي يرى تخبط وزارات المعارف العربية في برامجهـا ، ويقرأ الآراء المتضاربة بخصوص اللغة العربيـــة وطرق إصلاح مناهجها ، وتيسير قواعدها تتولاه الحيرة والألم .

الواقع ان كل ما نحن فيه عرض من اعراض الهزيمـة التي نعانيها ، ولولا ذلك لكان علاج تدريس اللغة العربية سهـــلاً ميسوراً .

اما استطاع اليهود إحياء لغتهم بعد نومتهـا اجيالاً ؟ وسر ذلك ان اليهود انتصروا — ولا يهمني ان ابحث عن اسباب هذا الانتصار — والانتصار يرفع النفس ويجعل المنتصر يتصور انه قادر على مواجهة كل صعوبات الحياة وقديمـــاً قيل « جراح المنتصرين سريعة الالتئام » .

ونحن هزمنـا فصغرنا في نظر انفسنا وصرنا نكاد نعزو كل مصائبنا للغتنا : صرفها ونحوها ، عروضها وبيانها وحروفها !

يلخص طالبو إصلاح اللغة العربية وتيسير مناهجها عللها في هذه الأمور :

١ — حروفها تصويرية صعبة ، وخطها زخرفة يحول دون تعلمها بسهولة ويسر .

٢ — قواعدها فلسفة تجريدية وبماحكات بوزنطية .

٣ — الرجل العربي المثقف مزدوج الشخصية البيانية ، لأنه يفكر باللغة العامية ويوضح افكاره باللغة الرسمية « الفصحى » .

فلحل هذه المعضلات الثلاث يقترح المقترحون :

١ — تبني الحرف اللاتيني .

٢ — تبسيط قواعد اللغة العربيـــة تبسيطاً يناسب عصر السرعة والذرة . وخلاصة ذلك الاستغناء عن قواعد اللغة كلها ، وبلاغتها وعروضها ، وتدريب الطلاب على ذلك بالنصوص !

٣ — هجر اللغة الفصحى واصطناع العاميـــة ، وكفى الله المؤمنين القتال !

اما ان الخط العربي زخرفة وتصوير فأمر لا جدال فيه ، واما انه عقبة من العقبات في سبيل سرعـة تعلم القراءة فأمر لا يجادل فيه عاقل ، نقول هذا بعد خبرة وتجربة . لكن ليس معنى ذلك انه يجب علينا تبني الحرف اللاتيني ، لا اقول هذا لأننـا عاجزون عن وضع اصطلاحات تضمن لنا ان نلفـــظ مثل : « خالد ، عالم ، ضيم » كما يجب ، لكني اقول انه يجب علينا ان نحتفظ بالحرف العربي لأنه عنوان عزّة قومية ، ومفخرة وطنية ، ووضعنا في هذا الأمر يختلف عن وضع الترك العثمانيين ، لأن الترك العثمانيين اخذوا حرفنا العربي إشعاراً بخضوعهم الأدبي لنا وإن حكمونا زمناً طويلاً ؛ ومثلهم فعل الفرس [١] . ولمـا ان

(١) الفلسفة اللغوية لزيدان . الجزء الثاني من المنهل في تاريخ الادب العربي . للعزيزي

ثار الترك العثمانيون على حرفنا العربي فعلوا ذلك استرداداً لعزة مفقودة على نقيض ما يريد المتطرفون من قومنا ان يفعلوا فهم يهربون من آثار العزة خوفاً من الصعوبة .

وقد ظل المورسكو يكتبون الاسبانية بالحرف العربي حتى بعد ان اخرج الاسبان العرب من البلاد، وكانوا ينشئون الادب المعروف بالادب الاعجمي Literatora Alajamiado [1] مع هذا فخطنا عقبة في سبيل سرعة التعليم ، وهو من معوقات القراءة الصحيحة ، لكن علاج ذلك ان نأخذ باقتراح الاب انستاس ماري الكرملي في رسالته : الكتابة العربية المنقحة ، وان كان في ذلك تشويه لجمال الخط العربي ، او ان نأخذ باقتراح الاستاذ محمود تيمور اي ان نكتفي بنوع واحد من الحروف العربية ونكتب كلامنا مضبوطاً بالشكل التام . ولنا ان نقرب بين الاقتراحين فنقتصر على نوع واحد من الحروف العربية ونأخذ حركات تدمج في الخط نفسه بين الحروف بدلاً من الحركات الحالية ، وضوابط بدلاً من الضوابط المألوفة ، وقد اقترحنا هذا الاقتراح سنة ١٩٤٠ وقدمناه الى مجمع فؤاد الاول للغة العربية على يد المرحوم الاب انستاس ماري الكرملي ، ولا ندري ماذا تم بشأنه . ان هذا الاقتراح يمكن اقل الناس حظاً من الثقافة ان يقرأ ما يكتب باللغة العربية بدقة .

انا اعلم ان مثل هذا الاقتراح معناه تبديل حروف الطباعة وهذا يكلف مبالغ باهظة لكن الايام سائرة الى الامام وستفرض علينا ضرورة التغيير شئنا ام ابينا ، فلنسبق الايام .

تأتي مسألة قواعد اللغة العربية وصعوبتها . نحن لا ننكر انه ادخل في قواعد اللغة العربية فلسفات لا تهم الطالب وان كانت تهم رجل الاختصاص : فالعلاج في هذه القضية الاستغناء عن فلسفة القواعد لا القواعد نفسها ، والاستغناء عن التخريجات المملة ، والاكتفاء بوجه واحد من الاعراب ، على ان تعلم القواعد على المنهج الدائري أي ان تعطى القواعد المهمة كلها بصورة عامة ، ثم توسع الدائرة سنة فسنة فيكون الطالب قد حذق القواعد من غير ان يشعر بملل، لا نقول هذا رجماً بالغيب بل نقوله نتيجة لخبرة ست وثلاثين سنة في التعليم الابتدائي والثانوي ؛ وقد جاءت تجاربنا بنتائج ملموسة . اما السير على الطريقة المقترحة طريقة القفز من موضوع الى موضوع من غير رابطة فأمر محفوف بالخطل !.

بقيت مسألة ازدواج الشخصية الادبية عند الرجل المثقف وهذا ما لا نوافق عليه ، لان الامة العربية كان لها منذ اقدم عصورها لغة عامية ولغة رسمية ادبية [1] ولم يحل ذلك دون تفوق العرب في كل ضرب من ضروب العلم والمعرفة ، ولو سلمنا مع القائلين ان العرب لم يعرفوا اللغة العامية إلا بعد ان فسدت فطرتهم لكان علينا ان نصارحهم بان العرب لم يضعوا تراثهم العلمي والادبي الخالد إلا بعد هذا الفساد اللغوي الذي يفرض ازدواج الشخصية الادبية الذي يشكو منه الشاكون . وهذه أرقى الامم حضارة اليوم لها لهجات عامية ولغة رسمية ولها في لهجاتها العامية صحف توزع في مقاطعاتها لا يفهمها إلا أهل تلك المقاطعة ، ولم يقل احد بان هذه اللهجة العامية كانت ضربة على اللغة القومية الرسمية ، وعندنا شواهد على هذا من الأدب الانكليزي نفسه، فان اللهجة الاسكتلندية غير الانكليزية وكثيراً ما ينظم بها الناظمون ، ولم يقل احد ان الاديب الاسكتلندي يصاب بازدواج الشخصية . وبرهان على ما نقول نذكر على سبيل المثال : To a Field-Mouse by قصيدة الى فأر الحقل القصيدة التي نظمها Robert Burns روبرت برنز الاسكتلندي المتوفي سنة ١٧٩٦ .

فأي انسان يستطيع ان يقرأها بالانكليزية المألوفة ويفهمها مع هذا فان الرجل وقومه ظلت شخصيتهم سليمة .

الواقع الذي لا عبار عليه ان الامة العربية افاقت من نومتها السياسية الطويلة وفاجأتها الضربات فأخذت تتلمس طريقها باسلوب فيه كثير من الارتجال واللجاجة ، فأضحت برامجها وهي تقميشات حائرة لا أثر فيها للدرس ، ولا أساس للمنهجية، فكانت اللجان التي تؤلف لدرس مناهج التعليم تؤلف ليصرف لها شيء من المال من خزانة الدولة ، وكانت هذه اللجان تضع اقتراحاتها على اساس كتب وضعها بعض اعضائها ليستأثر بالغنم، حتى لجنة تيسير قواعد اللغة العربية التي ضمت رجالاً بارزين لم يكتب لها التوفيق ، ولا نغالي اذا قلنا انها منيت بالاخفاق الشنيع ، وكان من أثر ذلك ان اصبح الطالب العربي ضحية ، وأصبحنا نحن ضحكة في تخبطنا المتعسف .

---

(١) العصبة الاندلسية ص ٥٥ العدد الـ ٧ السنة الـ ١١ المحاضرة الاولى لفيليب حتي .

(١) رأي للاب الكرملي في مجلة المقتطف ، وفي مجلة الغد المقدسية سنة ١٦٤٦ . راجع سدنة التراث القومي، والسلام الخير .

الواقع ان سر الافلاس الذي نعانيه ناتج عن اننا نحمـــل طلابنا ما لا تستطيع طبيعة الطفل والشاب ان تحتمله. فالطالب العربي يبدأ دروسه من الساعة الثامنة وينهيها الساعة الرابعة مساء ويعود الى البيت لاتمام واجباته التحريرية ومراجعة دروسه نحو خمس ساعات او اكثر ، ومعنى هذا أن الطالب يشتغـــل اشغالاً عقلية مرهقة مدة ثلاث عشرة أو اربع عشرة ساعة في النهار وهذا ما لم يشتغله عبد من عبيد القرون المظلمة ونطلب منه بعد ذلك ان يفهم وان ينتج !

وفي هذه الحالة تختار حصص اللغة العربية أحياناً في وقت ملل الطالب من الدرس ، والطالب العربي يتصور بحكم اعصابه المكدودة ان اللغة العربية سهلة لانه يتحدث مع امه ومع أبيه بها فيقدّم عليها غيرهـا من الدروس فينتج عن ذلك تدهور في مستوى هذه اللغة .

اعتقد أن تهذيب البرامج والمناهج واطالة سني الدراسة سنة وجعل حصص الدرس لا تتجاوز الخمس في النهار يضمن لنـــا نتائج علمية وصحية اكثر مما نرى اليوم في مثل هـذه اللهوجة والهرولة . على ان تكون الحصص الاسبوعية اربعاً وعشرين لا اكثر . هذه كلمة رائدنا فيها الاخلاص .

روكس بن زائد العزيزي